مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 22 العدد02 2026/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مركزية السياق الاجتماعي و التاريخي في فهم جدلية الواقع و النص ضمن آليات التأويلية الحداثية للقرآن الكريم – دراسة في أنثروبولوجية النص

The centrality of the social and historical context in understanding the dialectic of reality and text within the modernist interpretive mechanisms of the Holy Qur'an - a Study in the Anthropology of the Text

حسين زكراوي *

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر

zekrhasn@yahoo.com

تاريخ الاستلام: 2026/02/14 تاريخ القبول: 2026/05/19

ملخص:

شكّلت قضيّة المقدّس وما تفرّع عنها من خطابات وممارسات اجتماعية محورا أساسيا في تناول المفكرين العرب للظاهرة الدينية، في محاولة لفهم وتفكيك الطّرح الدينيّ و تحديد خلفياته الأيدلوجية، فتوجّهت جهودهم صوب القرآن الكريم وفهم خطاباته داخل سياقاته الاجتماعية التي تزامنت مع نزوله على النبي صلى الله عليه وسلّم، هذه الدراسات التي استثمرت فيها المناهج الاجتماعية واللسانية والتاريخيّة على حدّ سواء .

لما كانت الغاية من المناهج النقدية الحداثية للنصوص هي التأكد من صحة النص، و الوقوف على مصداقية صاحبه، و مدى توفيقه في معالجة الواقع، كانت الحيثيات المتعلقة بذلك النص أولى الأولويات لأن فهم النص متوقف عليها و نحن نجد علوم القرآن قدمت للمفسر هذه الخدمة الجليلة بأن أدرجت كل الحيثيات و السياقات في مباحثها و أبوابها، في المقابل نجد أصحاب القراءات يستثمرونها وفق ما تمليه المناهج النقدية.

الكلمات المفتاحية:

التأويل- علوم القرآن- تحليل الخطاب- أنثروبولوجيا النص- سلوك اجتماعي – التفاعل- هيرمينوطيقا

* المؤلف المرسل: حسين زكراوي، الايميل: zekrhasn@yahoo.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

Abstract:

The issue of the sacred and the discourses and social practices that emerged from it have formed a fundamental axis in Arab thinkers' approach to the religious phenomenon, in an attempt to understand and dismantle the religious proposition and determine its ideological backgrounds.

Their efforts were directed towards the Holy Qur'an and understanding its discourses within its social contexts that coincided with its revelation to the Prophet, may God bless him and grant him peace. These studies in which social, linguistic and historical approaches alike were invested.

Since the purpose of modern critical approaches to texts is to verify the authenticity of the text, determine the credibility of its author, and the extent of his success in dealing with reality, the reasons related to that text were the first priority because understanding the text depends on them, and we find that the sciences of the Qur'an provided the interpreter with this great service by providing All the reasons and contexts were included in its sections and chapters. On the other hand, we find those who read it investing in it according to what the critical approaches dictate.

Keywords:

Interpretation - Qur'anic sciences – discourse analysis - text anthropology - socio-cultural behavior – interaction- herminotiquel

مقدمة:

إن الناظر في مصنفات علوم القرآن وفي الأبواب المدونة فيها يجد أن أصحابها اهتموا اهتماما بالغا باثبات كل ماله علاقة بالقرآن الكريم , بنيتِه و هويتِه و تركيبِه و أسلوبه و مضمونه و لازال الأمر كذلك منذ بدء التأليف إلى غاية اكتماله على يد كل من الزركشي و السيوطي الذيْن يعد عملُهما خدمة جليلة لعلوم القرآن , و مسعًى تجديديا حازا فيه قصب السبق .

لقد مثّلت أبواب علوم القرآن مدخلا نظريّا ومادّة مهمّة للقائمين على عمليّة تفسير القرآن الكريم وبيان معانيه، ففي خضم علوم القرآن تُصنع العقلية التي تخرج النصّ القرآني من حيّز المقروء إلى أغوار الفهم، ولم تكن أبواب علوم القرآن الكريم حبيسة جدليّة النصّ والفهم، بل مثّلت سياقات الكشف والتنزيل ، و آليات الحمل والتأويل، ضمن قراءة لسانية انثروبولوجية للنص القرآني.

لقد سجّل التاريخ الإسلامي تباينا منهجيا بين الفرق الإسلامية في تأويل النصوص الشرعية، ولاشكّ أن هذا الاختلاف مبنيّ على منطلقات فكرية وننهجية تثبت محاولات التأسيس من الفهم إلى النصّ كما

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وقع من المعتزلة و الباطنية و الرافضة ، ممّا دعا بعض المفكّرين العرب إلى استثمار هذه الأدوات و المرتكزات الإجرائية في المناهج اللسانية الأنثروبولوجية الحديثة لإعادة قراءة النصّ القرآني الكريم وفق مبدأ النقد البنيوي و الفينومولوجي

من خلال هذه المقدّمة يمكن طرح الإشكال التالي:

كيف استثمرت التأويلية الحداثية سياقات النص الاجتماعية والتاريخية في فهم طبيعة النص القرآني و قراءته ؟

ويتفرّع عن هذا الإشكال جملة من التساؤلات:

-ماهي الأدوات اللسانية و الأنثروبولوجية التي اعتمدتها؟

-ماهي الخلفية فلسفية في تطبيق الحداثيين لسياقات النص القرآنيّ؟

-هل يمكن التأسيس لحداثة إسلامية من خلال النّظر في التأويليات التراثية ؟

الإجابة عن هذه الإشكالات سيكون مضمون محاور البحث ، وذلك وفق منهجية البحث العلميّ باستصحاب المناهج العلمية اللازمة لهذه الدراسة المدينة على ضبط متغيّرأت الإشكال، بدأ بالتقصي والتتبع لكلام الفلاسفة الغربيّين في تحديد أسس التأويلية الفلسفية، مستعينا بأداة الاستقراء والمنهج الوصفي، أو في التحليل والمقارنة بين التأويلية القرآنية والتأويلية الحداثية ، وذلك بالاستعانة بالمنهج المقارن والمنهج التحليلي .

1- نُظم التأويل في القراءة الحداثية

لما كانت الغاية من المناهج النقدية الحداثية للنصوص هي التأكد من صحة النص، و الوقوف على مصداقية صاحبه، و مدى توفيقه في معالجة الواقع، كانت الحيثيات المتعلقة بذلك النص أولى الأولويات لأن فهم النص متوقف عليها و نحن نجد علوم القرآن قدمت للمفسر هذه الخدمة الجليلة بأن أدرجت كل الحيثيات و السياقات في مباحثها و أبوابها، في المقابل نجد أصحاب القراءات يستثمرونها وفق ما تمليه المناهج النقدية، و ذلك لما فرضت الهيرمينوطيقا نفسها كآلية لفهم النصوص بأدواتها الخاصة (قاره، 1998) (الحيرش، 2013) .

وعلى هذا فإنّ الهرمينوطيقا تطوّرت بتطوّر طبيعة الفهم، لأن المعنى هو معنى الفهم وليس معنى النصّ فالهيرمينوطيقا ارتبطت بأنطولوجيا المعنى لا بالنصّ ذاته؛ لذلك كانت سياقات النصّ أقوى من دلالاته

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المتجرّدة، إلا أنها امتازت باللاهوتيّة في أوّل استعمالاتها بحيث كانت قريبة من النصّ، ثمّ نحت منحا فلسفيا في مرحلة متقدّمة أولت عناية كبيرة للفهم المسبّق، وفي مايلي ذكر لقسميْ الهرمينوطيقا في منظومة الفهم.

1-1- الهيرمينوطيقا اللغوية (ديلتاي و شلايرماخر) ، ينطلق شلايرماخر من أنّ التجربة العمليّة للدين كونٌ مفتوح يُنتج بشكل لامتناهٍ، وأنّ الدّين هو الإحساس بالتواصل مع المطلق والطّعم اللانهائي للمعنى، والذي لن يتحقّق دون كمال هذه الدائرة وذلك في معرض طرحه لفكرة الرّوحانية والتأمّل والتأويل وهي أصل الهيرمونيطيقا لمن بعده (شلايرماخر،، 2007)؛ جاء "ديلتاي" ليحيي أصول الهيرمينوطيقا التي ما فتئت أن نحت منحا فينومولوجيا بعد شلايرماخر ، ففي أدبيات ديلتاي أصبحت الهيرمينوطيقا تفسّر المعاني التي ترتبط بالتاريخ والروح والحياة من خلال الجمع بين الغنوص والمثالية و ذلك انطلاقا من ربط دائري للمعنى في كل نص بمكوناته الجزئية التي ينبني عليها، و يعود لدلتاي سبقُ نقل الهيرمينوطيقا من اللاهوت إلى علمٍ مؤسس لعملية الفهم من خلال كتاباته في النقد الذي ينطلق من استحالة استمرارية التاريخ؛ فالتأويلية على هذا وسيط لغوي يترجم قصدية المؤلف للقارئ (GENS، 2002) .

1-2- الهرمينوطيقا الفلسفية (هايدغر و غدامير) ،ينطلق هايدغر في فلسفته التأويلية في فهم العالم باعتباره أفقا لفهم الوجود الإنساني وسائر الموجودات، لتنتقل الهرمينوطيقا من جدلية النصّ والمعنى إلى جدلية الوجود والمعنى وفق تحليل فينومولوجيّ لظواهر الوجود، فالتعقّل أو الفهم يصنع داخل هذه الجدليّة الوجودية، أي أنّه لا يربطنا بالنّص فهم خارج عنه فوجوديّة النصّ تحتّم علينا فهم النّص كما تبادر إلينا فالسؤال هو كيف نفهم عن النّص، لا كيف نصل إلى المقصد (هايدغر، مدخل إلى الميتافيزيقا ، 2015) (هايدغر، الكينونة والزمان، 2012) .

لقد استفاد "غادامير" ممّا قدمه سابقوه في مجال التأويلية ، خاصّة المنظور المسيحي الذي يعتمّد التأمل ليربط النصوص الأدبية والنصوص المقدّسة بنظرية التلقي التي تمثّل فيها حركية اللغة منطلقا في العلاقة بين النصّ والقارئ؛ وأنّ ظاهرة اللغة والفهم نموذجٌ شامل من نماذج الوجود والمعرفة (زيد, نصر حامد أبو) (جورج، 2007) .

من خلال الخلفيات الفلسفية التي بُنيت عليها التأويلية (الهرمينوطيقا) أوصلت المفكّرين للقول يقول بأنّ تفسير الناس للنصوص الدينية أخرجها عن مضمونها الحقيقي و أن ذلك التفسير قد حرف معاني تلك النصوص، وأن أي تفسير بشري لها لابد أن يصاغ على وفق طبيعة نفس المفسر و أحوالها. و بناء عليه ،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فإن كل تفسير بشري للنص الديني لا اعتداد به لهذا السبب، و ثم فإن لكل إنسان الحق في أن يفسر النص الديني على الوجه الذي يراه، و إن يقرأه قراءته الخاصة به وفق نظريّة انفتاح النصّ . و من هؤلاء طبقة تدعو إلى ما يسمى بالنقد الثقافي , و هو البحث عن الأفكار و المعتقدات , التي بمقتضاها يصاغ النتاج الأدبي (مولود السريري، 2006) .

1-3- نظرية التلقي ركن الهيرمينوطيقا

لا تهتم هذه النظرية بالبحث عن المعني الموجود في النص، أو المعنى الذي كان في ذهن المنشئ للنص , و أراد أن يجعل النص وسيلة إلى المتلقي , بل تهتم نظرية التلقي بالمعنى الذي نشأ في ذهن القارئ أو في أذهان مجموعة من القراء ساعة تلقيهم النص. ذلك المعنى الأول الذي لا تهتم به نظريات القارئ معنى تفسيريٌ موضوعيٌ و موجودٌ وجودا مستقلا في النص أو في ذهن المنشئ، أما المعنى حسب المفهوم الثاني الذي تعتني به مدارس القارئ بل توليه كل اهتماماتها، فهو تجريبي و نسبي و غير موجودٍ وجودا موضوعيا مستقلا، لأنه متنوع و متغير و غير محدد، و يخضع لعوامل كثيرة تتعلق بظروف القراءة الزمانية و المكانية و الاجتماعية و الثقافية و الخبرة الذاتية. و هي في كل ذلك تعتمد أديولوجية تناهض الفكر الديني الذي يؤمن بوجود المطلق الأوحد (روبرت هوب، 2000) (الحيرش).

إن استدعاء الهيرمينوطيقا و مناهج النقد اللساني المعاصرة كان مبعثه التعامل مع النصوص الدينية على أنها نصوص منفتحة، متناهية المعنى , و على أساس موت مؤلفها , و تعددية الفهم و القصدية في الخطاب , و ملء الفراغات , لا على أساس الاجتهاد في إدراك مراد الله تعالى من وحيه، يقول د. حسن حنفي " إن النص بطبيعته مجرد صورة عامة تحتاج إلى مضمون يملؤها، و هذا المضمون بطبيعته قالب فارغ يمكن ملؤه من حاجات العصر و مقتضياته التي بناء الحياة الإنسانية التي عبر فيها الوحي في المقاصد العامة. و من ثم فالتأويل ضرورة للنص . ولا يوجد نص إلا و يمكن تأويله من أجل إيجاد الواقع الخاص به، لا يعني التأويل هنا بالضرورة إخراج النص من معنى حقيقي إلى معنى مجازي لقرينة , بل هو وضع مضمون معاصر للنص , لأنّ النص قالب دون مضمون التأويل هنا ضرورة اجتماعية من اجل تحويل الوحي إلى نظام بتغيير الواقع إلى واقع مثالي (حسن حنفي ، 1988) .

وهنا لا بأس من وقفة نقدية للدكتور طه عبد الرحمن الذي يرى أن القراءة الحداثية الصحيحة للنص القرآني يجب أن تستوفي شرطين اثنين:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

-الأول: رعاية قوة التفاعل الديني مع النص القرآني، أو ترشيد التفاعل الديني، و المقصود بالتفاعل هو استجداء القرآن الكريم و التوسل إليه عملا في الواقع، و هو ضد الصراع الذي عرفته أروبا مع الدين .

-الثاني: إعادة إبداع الفعل الحداثي المنقول أو "تجديد الفعل الحداثي"، و هذا التجديد يحصل باستبدال هدف الحداثة إلى هدف إيجابي، أو قل" بنائي " (طه عبد الرحمان، 2006).

فالهيرمينوطيقا أسست للقطيعة بين النص الديني و الحياة، بعد سيطرة الكنيسة على الحياة و المعرفة، و هذا ما لم يكن في البيئة الإسلامية , الأمر الذي يُلزم بإعادة صياغة أهداف القراءة المتعلقة بالنصوص الدينية المقدسة.

1-4- التأويلية القرآنية منظومة متكاملة

تنزّلا عند القول الحداثيّ نقول أنّه في فهم أيّ نصّ من النّصوص التاريخيّة أو الأدبية لابدّ من الوقوف على مقصد المتكّلم من النصّ باعتباره خطابا أو تواصلا أو توثيقا ، ثمّ معرفة لغته التي جعلها وعاءً لخطابه واتقان مصطلحاته ، زيادة على ضبط أحوال المخاطب و المتلقي و حيثيات الخطاب، ومن دون استصحاب تلك المبادئ و الأسس يصعب علينا بل يستحيل معرفة مراد المتكلم بالنص دونها، فهي تشكل بمجموعها المنهج الصحيح لفهم النّص و استجلاء معانيه" (الحيرش، صفحة 177). وهنا لابأس من التنوية إلى ملامح منهجية مهمة ذكرها الدكتور عبد الله العجيري و هي:

-أولا: أن أدوات فهم الوحي مبثوثة في الوحي ذاته , فقاعدة الجمع بين النصوص مضمنة في الوحي، و كذا قاعدة درء التعارض , و قاعدة التعامل مع المحكم و المتشابه , فكلها أصول و قواعد مبثوثة في الوحي و جرى عليها الصحابة و من بعدهم .

ثانيا: منهج الفهم الصحيح للنص تتكئ في الجملة على قضيتين رئيسيتين:

أ/ العلم بأصول الخطاب العربي .

ب/ المعرفة بأقوال السلف الصالح .

ثالثا: تعد اللغة العربية و معهود الأميين أساسا لفهم الكتاب و السنة , و هو ما تعددت الإشارة إليه في القرآن الكريم , و في هذه الإشارات ما يؤكد على ضرورة تبني أصول المخاطبة العربية بوصفها أصلا في فهم الوحي سواء كان من جهة ألفاظه أو جمله و سياقاته، قال تعالى " إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " [الزخرف 2] .

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

رابعا: إن الناظر في أحوال الصحابة و معارفهم و ديانتهم ، يجد أن ثمة أسباب موضوعية متعددة تؤكد على ضرورة تبني منهج الصحابة في فهم الوحي، بما حباهم الله من ملكات عقلية و نفسية , و روحية، ما كان عندهم من الإحاطة بعلوم العربية، وأنّهم الجيل الذي شاهد التنزيل و عرف مناسبات القرآن ،و تلقّى عن النبي (صلى الله عليه و سلم) مباشرة .

يقول الشاطبي: " و أنهم عرب، و فرق بين من هو عربي الأصل و النحلة , و بين من تعرب، و أنهم شاهدوا من أسباب التكاليف و قرائن أحوالها ما لم يشاهد من بعدهم , و نقل قرائن الأحوال على ما هي عليه كالمتعذر , فلابد من القول بأن فهمهم في الشريعة أتم و أحرى بالتقديم" (أبو إسحاق الشاطبي، (1417هـ/1997م))

خامسا " دلالة الوحي على اعتبار فهم الصحابة جاء بطريقين: مباشر: بالأمر بالاتباع , و غير مباشر: ببيان الفضل، و العلم. (عبد الله بن صالح العجيري ، 1434)

2- طرق استثمار سياقات النص في التأويلية الحداثية

في هذا الشق التطبيقي سنحاول الوقوف على كيفية استثمار أصحاب القراءات الحداثية لمباحث المكي والمدني، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ باعتبارها سياقات تتعلق ببنية النص القرآني.

2-1- السياق الزّمني لتشكّل النّص "المكّي والمدنيّ"

اهتم الدارسون الحادثون بالسياق الزماني لنزول القرآن، و بكل ماله صلة بتاريخية النص،على وجه الخصوص السيرة النبوية، التي تعد عندهم المناخ الذي تمخض فيه النص، حتى أنهم أسسوا لمدرسة خاصة بدراسة السيرة النبوية على غرار التاريخ الإسلامي تحذو حذو الإستشراق خاصة ما سطره شيخ المستشرقين الألمان في دراسته تاريخ القرآن، و مما كتبه الحداثيون العرب في ذلك " في السيرة النبوية" لهشام جعيط.

أما علماء القرآن فلم يكن اهتمامهم بالتأطير الفضائي للنزول اهتماما بغاية التتبع الخارجي لحركة الوحي،وانتقاله من مكان إلى آخر، وإنما كان بغاية الإلمام بما يترتب على تلك الحركة من تطور داخلي لمضامينه ومعانيه...فلكل من مضمون القرآن المكي والمدني خصائصه البنيوية، وتمفصله الدلالي، ما ينبئ عن وجود علاقة بين السياق والوحي (الحيرش) .

والآن نحاول تشخيص هذه العلاقة في نظر محمد عابد الجابري كما هي في كتابه "المدخل لفهم القرآن الكريم" يذهب إلى أصل الترتيب حسب النزول هو التعرف على المسار التكويني للنص القرآني , باعتماد

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية , فإن دور المنطق أو الاجتهاد لابد أن يكون مركزا أساسا على المطابقة بين المسارين : مسار السيرة النبوية و المسار التكويني للقرآن، لذلك فيمكن الحكم بأن موقع سورة معينة في لائحة ترتيب النزول المعتمد لا يتسق مع معطيات أخرى يقدمها لنا المأثور , الأمر الذي قد يستوجب نقلها من موقعها , فانه من الصعوبة بمكان تعيين موقع آخر مناسب لتلك السورة تنقل إليه داخل نفس اللائحة , و مادام الترتيب المقترح يقوم فقط على تغيير بعض المواقع و ليس على إنشاء ترتيب جديد تماما , الأمر الذي لن يجد ما يبرره، لذلك سيجعل مرتكزه هو اعتبار المناسبة مع هذه المرحلة أو تلك في مسار الدعوة المحمدية (محمد عابد الجابري، 2006).

فالذي يتضح من كلام الجابري أنه سيحاول في دراسته هذه الإجتهاد في فهم القرآن الكريم انطلاقا من ترتيبه الزمني الذي اختاره هو بعد تمحيص وتدقيق.

2-2-المكّي والمدنيّ وتأسيس الخطاب عند نصر حامد أبو زيد

في هذا المثال نحاول أن نستشفّ قيمة المكي والمدني في كشف طبيعة المنظومة التشريعية القرآنية، وتوجيه أحكامها، وتوظيفها في فهم خطاب القرآن الكريم عند نصر حامد أبي زيد. يقول عن قوله تعالى **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ] [الجمعة 9]:**

"ليست نصا في فرض صلاة الجمعة بل هي نص في "وجوب" ترك البيع، و بناءُ النصِ نفسِه يدل على ذلك و على ذلك فلا معنى لمحاولة التوفيق بين كون الآية مدنية و كون الصلاة فرضت في مكة،

و كذلك يمكن أن يقال عن الزكاة **[إنما الصدقات للفقراء والمساكين][التوبة]** , فهذه الآية نزلت بعد فرض الزكاة فهي ليست نصا في الزكاة و إنما هي نص في مصارف الزكاة، و في تحديد وجوه توزيعها، و المستحقين لها .

و إذا كان افتراضُ تأخرِ نزولِ النص عن الحكم افتراضًا وهميًا ناتجًا عن قصورٍ في فهم النص الديني من جهة، و عن عجزٍ في التحليل اللغوي للنصوص من جهة أخرى، فإن افتراض تأخر الحكم عن النص، أو بكلمات أخرى تقدم النص زمنيا على حكمه و دلالته نابع هو الآخر من مجموعة من الأخطاء نوردها:

-عدم التفرقة بين الدلالة اللغوية , و الدلالة الشرعية في النصوص و سياق الزكاة كمثال في السور المكية و المدنية .

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

-أن يرد تفسيرٌ معين للنص في رواية لا يستطيع العالم أن يردها لأنها منسوبة لصحابي أو تابعي,
و تكون دلالة هذا التأويل أن الآية (مدنية) فلا يجد العالم من حلٍ لهذا التعارض سوى التوفيق بافتراض تأخر النص عن الحكم , و يمكن إدراج آية" **لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ"[البلد1]**ضمن هذا الإطار .

-المصدر الثالث هو الخلط بين "مناسبة" النزول و بين سياق آخر يُعاد فيه الاستشهاد بالنص مرة أخرى، فيظن الراوي أن النص نزل سابقا على سببه، و يأتي العالم في مرحلة أخرى فيرى إمكانية تقدم نزول النص على حكمه و مناسبته، مثاله **سيهزم الجمع و يولون الدبر" [القمر45]**)جلال الدين السيوطي(نزلت بمكة، روى السيوطي أن عمر (رضي الله عنه) قال:أي جمع سيهزم؟ فلما كان يوم بدر انهزمت قريش نظرت إلى رسول الله في آثارهم مصلتا بالسيف وهو يقول"**سيهزم الجمع و يولون الدبر**" (الحيرش)" (نصر حامد أبو زيد، 2014).

2-3-أسباب النزول وتأريخية القرآن الكريم

لقي علم أسباب النزول اهتماما بالغا تنظيرا وجمعا وتدوينا، نظرا لقيمته العلمية التي يقدمها لعملية التفسير، وفقه الأحكام الشرعية وتنزيلها التنزيل الصحيح، وسبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه، والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال (الحيرش) (عبد العظيم الزرقاني، 2010).

وقد عدد الإمام الزركشي فوائده فقال:" زعم زاعم أنه لا طائل تحت هذا الفن ، لجريانه مجرى التاريخ. وأخطأ في ذلك ، بل له فوائد

منها : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها : تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب.

ومنها أن دخول صورة السبب قطعي، ومنها : دفع توهم الحصر، ومنها : معرفة اسم النازل فيه الآية وتعيين المبهم فيها (جلال الدين السيوطي، 1436/ 2015) (بدر الدين الزركشي، 1957/1376) .

من خلال كلام الأئمة الأعلام يتضح لنا قيمة أسباب النزول في كونها أحد مفاتيح التفسير، فهي سياق من السياقات التي تدور في فلكها معاني القرآن الكريم.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ولكننا إذا وقفنا على ما خلفته القراءات الحداثية سنجد الرؤية مختلفة تماما، إنهم يرون أن الغاية من أسباب النزول هي التأريخ للقرآن الكريم وقصر الأحكام على أسبابها، وهو ما رده الزركشي منذ ما يزيد عن ستة قرون. (الزركشي)

يرى محمد عابد الجابري أن" أسباب النزول " تفرض نفسها علينا من زاويتين "

الأولى: أن القرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يمكن التعامل معه كنص متكامل منذ البداية، فمنه ما نزل ابتداء كخطاب يشرح العقيدة أو كقصص , أو كنصوص تشريعية، أو أخلاقية، و هذا الصنف لا يتعلق في الغالب بأسباب أو مناسبات خاصة .

و كان منه ما نزل جوابا على سؤال طرح على النبي (عليه السلام) أو على المسلمين ،أو بمناسبة خاصة بالنبي (صلى الله عليه و سلم) و شؤونه الشخصية، أو بصحابي معين أو بأحوال تتعلق بعامة المسلمين زمن النبوة , أفرادا أو جماعة .و هنا تطرح أسباب النزول نفسها كمرجع – ضروري أحيانا – لفهم المقصود من هذه العبارة أو تلك .

الثانية اختلاف الروايات بصدد أسباب تعكس أحد شيئين:

-إما الواقع التاريخي الذي كانت له علاقة فعلا بنزول هذه الآية أو تلك , سواء كان من أسباب نزولها أو لم يكن، و هو في الحالتين معا عنصر في معهود العرب الذي نزل القران جملة و تفصيلا حسب أحواله و مقتضياته.

- و إما الواقع الفكري و الأيديولوجي الذي حرك "أصحاب" تلك الروايات للتركيز على سبب معين لكونه يعطي للآية دلالة خاصة تخدم ما يريدون تكريسه في وقت من الأوقات كرأي للشريعة في هذه الحالة تعطي روايات أسباب النزول الجواب، لا عن أسئلة طرحت قبل أو حين نزول هذه الآية أو تلك، بل عن أسئلة حاضر "الراوي".

و بناء على هذا التحليل لوظيفة أسباب النزول فهو يرى ضرورة عدم الاقتصار على نقد رواياتها، بل لابد من نقد متونها، حتى تتحقق مصداقيتها، و هذا التحقق يكون في عناصرٍ ثلاثةٍ:

الأول: عدم تعارض المعنى الذي تقدمه أسباب النزول مع المعنى الذي يقبله السياق.

فعندما تبتعد أسباب النزول بالآية عن سياقها يُطرح التساؤل عن الهدف من أسباب النزول، هل هو ربط كل آية بحادثة تبرر سبب نزولها، أو بيان المناسبات التي تشكل سببا لنزول هذه الآية فعلا؟

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الثاني: التوافق مع ترتيب النزول و مع مسار السيرة النبوية.

الثالث" التوافق مع معهود العرب الاجتماعي و الاقتصادي، و الفكري و الحضاري (محمد الجابري).

2-4- النّاسخ والمنسوخ ومأزق التّشريع

يعد مبحث الناسخ و المنسوخ من المباحث الحساسة التي تناولها الدرس القرآني و الأصولي على السواء، للصلة الوثيقة بينه و بين بناء الأحكام الشرعية و دفع توهم التعارض و التناقض بينها،

و الخلاف فيه مبسوط عند المتقدمين و المتأخرين، بين مثبت و نافٍ، مكثر و مقلّ، و مصنفاتهم الخاصة شاهدة بذلك (زرزور، 2014/1436).

و النسخ مما خص الله به هذه الأمة , لحكم منها التسيير (الشافعي، 2016/1437) ، و بيان مرونة الشريعة و مراعاتها للأحوال (الموافقات في أصول الشريعة-أبو إسحاق الشاطبي)، و بناء على ذلك فإن صلته قوية أيضا بالسياق الفضائي و السياق التأريخي للقرآن الكريم، لا ينفصل تحديده عن معطيات البعد التكويني للنص، والمعتمد في معرفة الناسخ و المنسوخ هو النقل و التاريخ، لأن النقل يحيلنا على زمن النبوة، أي على الفترة الزمنية التي تبلورت فيها الفهوم المرجعية المسْبَقَةُ لكافة محاور النص الدلالية، و منها محور الناسخ و المنسوخ، بينما يحيلنا التاريخ على النظام الترتيبي للنص (الكرونولوجي) باعتباره نظاما لا يتأتى الوقوف عليه إلا استنادا على معرفة دقيقة بالسياقات الفضائية للتنزيل، فالنقل و التاريخ بهذين المعنيين معطيان تكوينيان حاسمان في التعرف على الناسخ و المنسوخ و ضبطهما.

و الكلام على الناسخ و المنسوخ يحيلنا إلى الكلام على ارتباطه بمبدأ التمهيد "التدرج" في تشريع الأحكام، يقول الشاطبي "فالنسخ إنما وقع معظمه بالمدينة " (الموافقات في أصول الشريعة-دار ابن عفان) . فهو ليس ارتباطا بمبدأ تشريعي صوري لا يمتّ إلى مقتضيات الواقع بأي صلة , فالتمهيد مبدأ داخلي في المنظومة التشريعية القرآنية، الغرض منه "تكميل" الأحكام و "تقويتها" و "تحصينها" (الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن).

إنّ الحكم على طبيعة النصّ وأنه استجابة لتفاعلات اجتماعية هو ما جعلهم لا يعتبرون الناسخ و المنسوخ سياقا إنجازيا لمنظومة التشريع حسب المقاصد التي ارتضاها الشارع الحكيم، إنهم بخلاف ذلك جعلوا الناسخ و المنسوخ تقنينا لتغطية الفراغ القانوني أي عمل الفقهاء و الأصوليين و المفسّرين ينطلقون من المعاني لوضع و تجاوز بعض القوانين حسب اجتهادهم الفقهي و توجههم الفكري و الاجتماعي.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

و لو اطلعنا على كتاب أركون "من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي" لوجدت أنه يوجه أقوال أهل العلم في نسخ بعض الأحكام على أنها مجرد مسوغات للفرار من مأزق فقهي تفرضه دلالة تلك الآيات التي يراها هو تعترف بشكل صريح بحق كل مؤمن ليس فقط في حرية التوريث لمن يشاء ، و إنما بواجب التوريث عن طريق ترك وصية بأملاكه للأبوين و للأقربين و للزوجات أي لكل من لهم الحق من ورثته و الذين يستطيع توريثهم بإرادته الصريحة أو حرمانهم من التوريث. و لكن المشكلة هي أن هذه الآيات أَبْطَلت أو نسخت من قبل الآيتين اللتين درسناهما سابقا.

-يقصد قوله تعالى" يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين"[النساء11]" و لكم نصف ما ترك أزواجكم" [النساء12]

قلت -أركون- أبطلت و كان ينبغي أن أقول أعلنوا أنها باطلة أو منسوخة. و هذا ما يفسر لنا السبب في الضغوط التي مورست لبناء الفعل "يُوصي" للمجهول و ليس للمعلوم كما هو مُتَوقع لغويا بحسب الذوق اللغوي السليم، و ذلك في الآية من سورة النساء "و لكم نصف ما ترك أزواجكم " [النساء12] .

و هكذا نجد أنفسنا أمام إرادة صريحة و متعمدة تهدف إلى حصر حرية التوريث، بل و حتى إلى إلغائها على الرغم من أن القران قد نص عليها صراحة في الآيات المذكورة من سورة البقرة (أركون، 1991).

انظر قوله " نجد أنفسنا أمام إرادة صريحة " الذي يقصده بهذه العبارة هو إرادة الفقيه و المفسر المتعسفة، التي احتالوا بها على القرآن الكريم من أجل الحفاظ على نظام الإرث العربي الذي كان سائدا قبل ظهور الإسلام، و الذي حاول القرآن تغييره أو تعديله بشكل جذري .

و هاهو الطيب تيزيني يذهب إلى أبعد ما ذهب إليه أركون، فهو يرى تعليق الأحكام تحت دعوى النسخ كان أحيانا باجتهاد النبي (صلى الله عليه و سلم) عندما تبين له أن آيات ما أصبحت دون إمكانية الاستجابة لواقع الحال المشخص المعني في حينه ، و من باب أولى أن يُفتح باب الاجتهاد في النسخ لمن بعد النبي (ص) من العلماء لوجود المقتضى لذلك، و هو التطور و التغير الطارئ على المجتمعات، الذي يفرض عدم صلاحية الكثير من الأحكام (تيزيني، 1997) .

من خلال كلام أركون و التيزيني نستشف موقف أصحاب القراءة الحداثية من النسخ بأنه ليس سوى مبرر تشريعي يتلاعب به المشرعون (الفقهاء) لبناء أنظمة تشريعية تستجيب لمتطلبات الواقع السياسي و الاجتماعي في مجتمعاتهم، متغافلين عن طبيعة النسخ التي أشرنا إليها سابقا و عن طريق إثباته

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

و هو النقل، هذا إذا تقرر لدينا أن خلاف علمائنا في باب النسخ لا يعدو أن يكون خلافا مصطلحيا، لا يتبادر إلى الذهن إطلاقا أن يكون جسرا للطعن في الصناعة الفقهية، و في أرباب النظر الفقهي.

2-5-علوم القرآن و سياق إنتاج النصّ عند حامد أبو زيد

يحاول نصر حامد أبو زيد دراسة النص في واقعه، و هو ما لم تحفل به الألسنة الحديثة، التي تدرس النص بمنطق موت المؤلف، كما أن نفي الاعتقاد بقدم القرآن وأزليته، و الأخذ بحدوثه و خلقه كان هو المفتاح الأكبر الذي حقق لأبي زيد تمايزه في دراسة النص عن المحاولات السابقة في مجال الكلام و علوم القرآن، إن هذا المنطق و المسلمة عند أبي زيد مكّنته من دراسة النص في واقعه أو ربطه بواقعه، و من ثم إدخال التطور عليه .

و هذا النّهج الذي انتهجه أبو زيد في دراسة القرآن الكريم، كان بعد أن اتضحت لديه الأسباب التي جعلت النص الديني يغمر الحياة , و المتمثلة في "العقل الفقهي" الذي دشّنه الإمام الشافعي رحمه الله، الذي بناه على جملة من القواعد و القوانين الضابطة لعملية التأويل و فهم النصوص الشرعية (زيد، صفحة د).

فهي محاولة من أبي زيد لنزع القداسة عن العقل الفقهي الإسلامي التي أخفيت له في تاريخ المعرفة الإسلامية، ليبقى موقف الخطاب الديني المعاصر من "علوم القرآن " موقف الترديد و التكرار على حد زعمه. و لعل الباب الذي يلج منه و يأخذ به في هذه الآلية هو نظرية المجاز التي كانت مدار بحوثه في التأويل بدء برسالة الماجستير " الاتجاه العقلي في التفسير- دراسة قضية المجاز في القرآن عند المعتزلة " و كتاب النص و الحقيقة و السلطة ". والمجاز كان مدخلا للتأويل لدى كثير ممن أفرطوا في الإغراب، و هم ينسون —كما يقول الجرجاني- أن احتمال اللفظ شرط في كل ما يعدل به عن الظاهر (الجرجاني، 1988/1409).

فأصبح (المبالغة /الغموض / تعددية الدلالة) عند الحداثيين مقابلا لـ(الإفراط / الإغراب / تكثير الوجوه) عند المجازيين.

التي دعا فيها إلى أنسنة القرآن الكريم، و تحريره من التفسيرات التعسفية , و الرؤى الأسطورية التي رانت عليه، فحلت الهيرمينوطيقا بديلا للمناهج المعتمدة في التأويلة القرآنية السليمة .

تظهر قيمة علوم القرآن عند أبي زيد على صعيدين اثنين:

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

-أولا على صعيد ربط النص بالواقع ، و كونه منتجا ثقافيا أي أن الواقع هو الذي أنتج بنية القرآن الكريم، ثم رجع هو الآخر ليؤثر في الواقع و الثقافة، فعلوم القرآن هنا تمثل المنهج الإبْستمولوجي الذي يتناسق مع أنطلوجية النص ، تمهيدا لدراسة تاريخيته معرفيا (أي بناء هذه القراءة على أساس تاريخي)

ثانيا: على صعيد فهم النص و قراءة مدلولاته، بوضع آليات القراءة في سياق تاريخي، و في إطارِ جدلٍ ،و هذا الجدل يصنف إلى صنفين عند أبي زيد:

ا/ جدل النص مع القارئ، مستبعدا المؤلف، و الواقع المحيط بالنص، بحيث يدرس دراسة هيرمينوطيقية و سميوطيقية , فالفهم يبدأ من القارئ لا من النص.

ب/ جدل النص و الواقع، وهو جدل يكون لدى صاحبه الثلاثي الخطير :النص/الواقع /المؤلف (الله، 2014/05/15).

خاتـــــــمة

بعد هذه الإطلالة على بعض كتب التأويلية المعاصرة، وتعاملها مباحث المكي والمدني، وأسباب النزول، والنسخ وطرق استثمارها، تكون قد تكونت لدينا نظرة فاحصة، تنبئ عن البون الشاسع والفرقد الواسع بين التأويليتين: القرآنية و الفلسفية، اللتين تختلفان في الأصل والمنطلق، والمسعى والأهداف، ومن ثمّ تباين النتائج والرُؤى.

-دون أن ننسى الجهد الكبير الذي بذله الدكتور محمد الحيرش في دراسته "النص وآليات الفهم في علوم القرآن" الذي حاول فيها الرُقَيَ بالحوار بين التأويليتين ، ونمذجة التأويلية القرآنية بأبعاد متكاملة متناسقة .

-لقد ساهمت الترجمة التأصيلية لكتب التأويلية من استثمار المفكّرين العرب في نقد التراث التفسيريّ ، بما يتماشى مع المناهج الفلسفية المترجمة .

-لقد شكّلت الهيرمينوطيقا- Hérminotique نظاما تأويليّا متكاملا حافظ على آلياته وأدواته و أركانه رغم اختلاف النصوص التي طبق عليها بدأ بخصوص الكتاب المقدّس الذي تنقل من لغة الكتابة إلى لغة الخطاب .

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

-لامسَت التأويلية الحداثية العربية مفارقة فلسفية من حيث استمارها للسياقات التي أحاطت بالنصّ القرآني، أمّا المناهج التي انتقلت من دراسة النصّ اليوناني والآرامي واللاتيني. فبإمكانها أن تطبّق على أي لغة لوحدة الفلسفة اللغوية.

-تعتبر لغة القرآن الكريم لغة ثقيلة بالمعاني الدينية الخاصّة التي لايمكن فهمها إلا ضمن التأويلية الإسلامية التي تنطلق من اللفظ إلى المعنى.

-لقد جدّدت مناهج النقد الأجنبية طريقة تناول التراث التفسيريّ العربيّ الذي استغلّ أحيانا اللغة لتبرير المفاهيم الخاطئة النابعة من بعض الفرق و الطوائف، فكانت الأدوات اللسانية والأنثروبولوجية تحلل تلك الآراء تحليلا دقيقا يعطي تصورات كاملة عن نشأتها و خلفياتها و أهدافها، رغم افتقار المناهج الغربية للتقعيد وضبط عملية التأويل بما يتوافق مع مقاصد الخطاب القرآني العظيمة و طبيعته القدسيّة .

المراجع:

1 عبد الله بن صالح العجيري . (1434). *ينبوع الغواية الفكرية*. الرياض : مركز الدراسات و البحوث البيان.

2 محمد الجابري. (بلا تاريخ). *فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول*.

3 Jean-Claude GENS .(2002) . *LA PENSÉE HERMÉNEUTIQUE DE DILTHEY* .Presses Universitaires du sperentrion.

4 أبو اسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي. (بلا تاريخ). *الموافقات في أصول الشريعة-دار ابن عفان*.

5 أبو إسحاق الشاطبي. ((1417هـ/1997م)). *الموافقات في أصول الشريعة تحقيق مشهور آل حسن* . السعودية: دار ابن عفان.

6 الحيرش. (بلا تاريخ). *النص و اليات الفهم في علوم القرآن*.

7 الحيرش. (بلا تاريخ). *النص وآليات الفهم في علوم القرآن*.

8 الحيرش. (بلا تاريخ). *النص وآليات الفهم في علوم القرآن*.

9 الحيرش. (بلا تاريخ). *النص وآليات الفهم في علوم القرآن*.

10 الحيرش. (بلا تاريخ). *النص وآليات الفهم في علوم القرآن*.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

11 الحيرش. (بلا تاريخ). *النص وآليات الفهم في علوم القرآن* .

12 الزركشي. (بلا تاريخ). *البرهان في علوم القرآن*.

13 الطيب تيزيني. (1997). *النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة*. دمشق: دار الينابيع.

14 *الموافقات في أصول الشريعة-أبو إسحاق الشاطبي* . (بلا تاريخ).

15 *الموقع الرسمي حمود بوعلام*. (بلا تاريخ). تاريخ الاسترداد 08 07, 2017، من HTTPS://WWW.GOOGLE.DZ/SEARCH?Q.

16 بدر الدين الزركشي. (1957/1376). *البرهان في علوم القرآن* . (أبو الفضل إبراهيم، المترجمون) بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

17 جلال الدين السيوطي. (1436/ 2015). *الإتقان في علوم القرآن*. (تحقيق مصطفى شيخ مصطفى، المترجمون) ،مؤسسة الرسالة-بيروت، .

18 جلال الدين السيوطي. (بلا تاريخ). *الدر المنثور في التفسير بالمأثور* (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

19 حسن حنفي . (1988). *من العقيدة إلى الثورة المقدمات النظرية* . بيروت: دار التنوير.

20 حيدر حب الله. (2014/05/15). النص القرآني وتجاذبات المنهج-قراءة في علوم القرآن عند نصر حامد أبي زيد . *http://hobbollah.com*.

21 روبرت هوب. (2000). *نظرية التلقي مقدمة نقدية ترجمة:عز الدين إسماعيل* . المكتبة الأكاديمية.

22 زيد, نصر حامد أبو. (بلا تاريخ). *إشكالية القراءة و آليات التأويل*. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

23 طه عبد الرحمان. (2006). *روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية* . الدار البيضاء، : المركز الثقافي العربي.

24 عبد العظيم الزرقاني. (2010). *مناهل العرفان في علوم القرآن*. بيروت: مطبعة عيسى الحلبي وشركائه.

25 عبد القاهر الجرجاني. (1988/1409). *أسرار البلاغة في علم البيان* . (حقيق وتعليق: الشيخ محمد رشيد رضا، المترجمون) بيروت: دار الكتب العلمية.

26 عدنان محمد زرزور. (2014/1436). *علوم القران* . بيروت: المكتب الاسلامي.

27 غادامير جورج. (2007). *الحقيقة والمنهج ترجمة: حسن ناظم*. طرابلس ليبيا: دار أويا.

28 فريديريك شلايرماخر،. (2007). *عن الدّين* (المجلد ط1). (أسامة الشحماني، المترجمون) بيروت،: دار التنوير.

29 مارتن هايدغر. (2012). *الكينونة والزمان*. (فتحي المسيكني، المترجمون) بيروت لبنان: دار الكتاب الجديدة.

30 مارتن هايدغر. (2015). *مدخل إلى الميتافيزيقا* . (عماد نبيل، المترجمون) بيروت لبنان: دار الفارابي.

31 محمد أركون. (1991). *من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي*. (ترجمة:أحمد صالح، المترجمون) دار الساقي.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

32 محمد الحيرش. (2013). *النص وآليات الفهم في علوم القرآن*. بيروت: دار الكتاب الجديد.

33 محمد بن إدريس الشافعي. (2016/1437). *الرسالة* . (أحمد محمد شاكر، المترجمون) شارع الأزهر: الدار العلمية.

34 محمد عابد الجابري. (2006). *المدخل إلى القرآن الكريم*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

35 مولود السريري. (2006). *القانون في تفسير النصوص* . بيروت: دار الكتب العلمية.

36 نبيهة قاره. (1998). *الفلسفة والتأويل* (المجلد ط1). بيروت، : دار الطليعة.

37 نصر حامد أبو زيد. (بلا تاريخ). *مفهوم النص مقدمة الناشر*.

38 نصر حامد أبو زيد. (2014). *مفهوم النص دراسة في علوم القرآن*. المركز الثقافي العربي.